Global Islamic Economics Magazine
مجلة الاقتصاد الإسلامي العالمية

GIEM

Universe Value Chains

سلاسل القيمة الكونية

درس من كتاب الله

Volume No. 139, JANUARY 2024 - JUMADA II-1445

سلاسل القيمة الكونية

درس من كتاب الله

د. سامر مظهر قنطقجي

رئيس تحرير مجلة الاقتصاد الإسلامي العالمية

@ FB , LinkIn , Youtube

جاء في المعجم الوسيط: "سلسل الأشياء ربط بعضها ببعض وكأنها سلسلة"، تمثل مخرجاتها منافع تحقق قيماً مضافة متراكمة. ولقد استخدم مصطلح سلسلة القيمة[1] في علوم إدارة الأعمال للتعبير عن مجموعة الأنشطة التي تؤدّيها منظمة تعمل في مجالٍ ما لتقديم مُنتج أو خدمة ذات قيمة في السوق.

ترتكز فكرة سلسلة القيمة على طريقة عرض العمليّات باعتبارها نظاماً مؤلفاً من أنظمة فرعية لها مدخلات ومخرجات وعمليات تحويل تخصها. يشمل ذلك **الموارد البشرية** كعمل العمال وجهود الإدارة، و**الموارد المادية** كالمواد والآلات والأبنية والأرض.

وقد جاءت الآية الكريمة التالية بسرد سلسلة أنظمة كونية، فيها عمليات تحويلية ولها مدخلات ومخرجات، تتألف من موارد مادية أُوجدت في هذا الكون الفسيح ليتحكم بها ويديرها الإنسان بوصفه المورد البشري، وبتفاعل هذه الموارد تتأتى المنافع، فمنها الطبيعي التلقائي، ومنها ما يحتاج تحويلاً بتدخل بشري إدارة وتنظيماً. قال تعالى:

[1] مفهوم من مفاهيم إدارة الأعمال جاء ذكره من مايكل بورتر في كتابه الأكثر مبيعاً لعام ١٩٨٥ الميزة التنافسيّة.

إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ [البقرة: ١٦٤]

ونضرب مثالاً على ذلك، **سلسلة القيمة لأحجار البناء:**

عندما يكون الحجر يكون قابعًا في جبل، تكون قيمته معدومة تقريبًا لمحدودية نفعه، ثم بتفجيره من قبل شركة (محاجر) يتم الحصول على أجزاء كبيرة من الحجر، ثم بنقله إلى (مقاطع الحجر) يتم الحصول على أجزاء منتظمة من الحجر، وبتقطيعها لأجزاء أصغر تصبح أكثر نفعًا، ثم بنقلها إلى أماكن البناء ووضعها في البناء، تصبح أكثر فائدة ونفعًا، لأنها شكّلت البناء الذي يستفيد منه الناس.

وتضيف كل مرحلة نقل أو صنع، قيمةً للحجر، فيتشكل الثمن الذي يتزايد بازدياد الإنفاق عليه كقيمة مضافة، ثم بوضعه كقطع مفككة قابلة للجمع ضمن صناديق Package، يصير منتجًا أكثر حيوية، وقابلاً للنقل كمنتج وسيط يمكن تصديره لدول أخرى ليحقق قيمة مضافة أكبر.

وبذلك ولّدت عمليات النقل والعمليات الصناعية المتتالية؛ قيمة مضافة للمنتج النهائي لحين وصوله إلى المستخدم النهائي الذي يستفيد منه. تمثل تلك العمليات المتتابعة (مصفوفة سلسلة القيمة)، لأن كلاً منها هيّأ إمكانيّات تحسينية في العمليات المبذولة.

وهذا أمرٌ لا يخص عصرنا الحالي وحسب، بل هو قديم، أخبرنا الله تعالى عنه في قرآنه الكريم، فالجبال لها مهام ووظائف أهمها، أنها مُثبِّتة لقشرة الأرض التي تدور باستمرار، قال تعالى: **وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا** (النبأ: ٧)، وأخبرنا القرآن الكريم أيضًا، أن قوم هود كانوا يبنون الأبنية المرتفعة والقصور والمصانع، قال تعالى: **أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ * وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ** (الشعراء: ١٢٨-١٢٩)، وكان قوم ثمود ينحتون بيوتًا آمنة في الجبال، قال تعالى: **وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ** (الحجر: ٨٢)، وبيوتًا فارهة: **وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ** (الشعراء: ١٤٩). وهذا ليس حصرًا على الإنسان، فالنحل أيضًا تفعل وبوحي من الله بيوتًا في الجبال، قال تعالى: **وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ** (النحل: ٦٨).

المنفعة غاية وسيطة ينشدها الإنسان:

لقد أبيحت المنافع في هذه الدنيا لجميع الناس، المؤمن منهم، وغير المؤمن، وهذا منهج قرآني؛ فلما طلب إبراهيم عليه السلام من ربه أن تكون مكة بلدةً آمنةً وأن يرزق أهلها من الثمرات من آمن منهم فقط، أضاف الله تعالى بأن من كفر أيضًا سيتمتع بتلك المنافع، لكن مُتعتهم ستكون محصورة في الحياة الدنيا دون الآخرة، بوصفها حياة مؤقتة، فهم قد جهلوا قَدر الإله الخالق لهذه المنافع رغم تذكيرهم بها. قال تعالى: **وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ ۖ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ** (البقرة: ١٢٦).

إذًا أبيحت المنافع للناس جميعهم، وكلمة منافع جمع منفعة، وهي كل ما يُنتفع به، وقد وصف الله تعالى الأنعام بمنافعها من اللحم الذي يؤكل، والجلد والشعر الذي يُدفئ إذا حيك كلباس، وكذلك ركوبها للنقل، فقال تعالى: **وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ** (النحل: ٥)، وقال: **جَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ** (الزخرف: ١٢).

لكنه تعالى خص المؤمنين بضرورة شُكره على تلك المنافع بوصفه الخالق، وهذا عُرفان له لأنه المنعم وهو الإله جلّ في علاه. فجاء في الآية ١٦٨ التي تتلو الآية موضوع البحث قول الله تعالى: **يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ ۚ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ**. فالنداء لجميع الناس بإباحة الحلال الطيب مما في الأرض. ثم جاء في الآية ١٧٢ التي تليها، قول الله تعالى: **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ**. ثم فصّل بعدها مباشرة ما هو محرم عليهم بقوله: **إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ ۖ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ** (البقرة: ١٧٣)، ومن رحمته الواسعة أن رفع عن المضطرين الحرج وغفر لهم، تقديرًا لحالات بعض الناس فلا يُكلّفون فوق طاقتهم، وهذه هي صفات الربّ الرحيم بخلقه المؤمنين.

أما الشيطان، فهو المخلوق الذي عصى الله تعالى، وهو أول العصاة وأشدهم، قد أخذ على عاتقه غِش الناس وتضليلهم ليكونوا مثله، ولأجل ذلك خاطب الله تعالى الناس كلهم ألا يتبعوا خطوات الشيطان

كما ورد في الآية ١٦٨، وأن إغواءه لهم سيكون بالسوء وبالفحشاء وبالقول على الله ما لا يصح قوله لجهلهم. فرسمت الآيتان ١٦٦ و١٦٧ نموذجًا حدد مصير من أزلّه الشيطان، بالحسرة والخلود في العذاب الشديد.

وحدانية الله تعالى غاية ينشدها من يرجو الفلاح:

لقد جاءت الآية الكريمة رقم ١٦٤ من سورة البقرة، ردًا على من تقوّل على الله بسوء وبما لا يعلم، فرسمت نموذج سلاسل القيمة التي لا تنتهي في هذا الكون، بعدما استهجن كفار قريش وحدانية الإله.

قال ابن أبي حاتم[1]: حدثنا أبي، حدثنا أبو حذيفة، حدثنا شبل، عن ابن أبي نجيح، عن عطاء، قال: نزلت على النبي صلى الله عليه وسلم بالمدينة: **وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ** (البقرة: ١٦٣)، فقال كفار قريش بمكة: كيف يسع الناس إله واحد؟ فأنزل الله تعالى: (**إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ**) إلى قوله: (**لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ**)، فإن كان المشككون يعقلون، فسيتدبرون هذه السلاسل من الآيات العظيمة التي يربط بعضها بعضًا، والتي تشكل منظومة متسلسلة من القيم التي تحقق المنافع للناس جميعهم، فإن عقلوها، علموا أن خالقها إله واحد، خالق كل شيء.

لقد أسهب المفسران القرطبي وابن عاشور في بيان مدخلات هذه المنظومة ومخرجاتها من المنافع النهائية والوسيطة.

أولاً: مُدخلات سلاسل القيمة الكونية ومُخرجاتها في تفسير القرطبي[2]:

(**فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ**): ارتفاعها بغير عمد من تحتها ولا علائق من فوقها، ودلّ ذلك على القدرة وخرق العادة... ثم ما فيها من الشمس والقمر والنجوم السائرة والكواكب الزاهرة شارقة وغاربة نيّرة وممحوة آية ثانية.

(**وَالْأَرْضِ**): بحارها وأنهارها ومعادنها وشجرها وسهلها ووعرها.

[1] تفسير ابن كثير
[2] تفسير القرطبي، بتصرف.

(وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ): اختلافهما بإقبال أحدهما وإدبار الآخر من حيث لا يعلم. وقيل: اختلافهما في الأوصاف من النور والظلمة والطول والقصر. والليل جمع ليلة... قال ابن فارس: النهار معروف، والجمع نهر وأنهار... والنهار: ضياء ما بين طلوع الفجر إلى غروب الشمس. والصحيح قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: **(إن وسادك لعريض إنما هو سواد الليل وبياض النهار)**.

(وَالْفُلْكِ): السفن، وسميت السفينة فُلكا لأنها تدور بالماء أسهل دور. ووجه الآية في الفُلك: تسخير الله إياها حتى تجري على وجه الماء ووقوفها فوقه مع ثقلها. وأول من عَملها نوحٌ عليه السلام كما أخبر تعالى، وقال له جبريل: اصنعها على جؤجؤ الطائر، فعملها نوح عليه السلام وراثة في العالمين بما أراه جبريل. فالسفينة طائر مقلوب والماء في أسفلها نظير الهواء في أعلاها، قاله ابن العربي.

وهذه الآية وما كان مثلها دليل على جواز ركوب البحر مطلقا لتجارة كان أو عبادة، كالحج والجهاد... وضرب الله البحر وسط الأرض وجعل الخلق في العُدوتَين، وقسم المنافع بين الجهتين فلا يوصل إلى جلبها إلا بشق البحر لها، فسهَّل الله سبيله بالفُلك، قاله ابن العربي.

وقوله تعالى: (بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ) أي بالذي ينفعهم من التجارات وسائر المآرب التي تصلح بها أحوالهم. وبركوب البحر تُكتسب الأرباح، وينتفع من يُحمل إليه المتاع أيضا.

(وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ): يعني بها الأمطار التي بها إنعاش العالم وإخراج النبات والأرزاق، وجعل منه المخزون عدة للانتفاع في غير وقت نزوله، كما قال تعالى: (فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ).

(وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ): أي فرَّق ونشر، ومنه كالفراش المبثوث ودابة: تجمع الحيوان كله.

(وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ) تصريفها: إرسالها عقيماً وملقحة، وصِرًّا ونصراً وهلاكًا، وحارة وباردة، ولينة وعاصفة. وقيل: تصريفها إرسالها جنوبًا وشمالاً، ودبوراً وصبًا، ونكباء، وهي التي تأتي بين مهبي ريحين. وقيل: تصريفها أن تأتي السفن الكبار بقدر ما تحملها، والصغار كذلك، ويصرف عنهما ما يُضرُّ بهما، ولا اعتبار بكبر القلاع ولا صغرها، فإن الريح لو جاءت جسداً واحداً لصدمت القلاع وأغرقت. والرياح جمع ريح سميت به لأنها تأتي بالروح غالبًا.

قال العلماء: الريح تحرك الهواء، وقد يشتد ويضعف. فإذا بدت حركة الهواء من تجاه القبلة ذاهبة إلى سمت القبلة قيل لتلك الريح: "الصبا". وإذا بدت حركة الهواء من وراء القبلة وكانت ذاهبة إلى تجاه القبلة قيل لتلك الريح: "الدبور". وإذا بدت حركة الهواء عن يمين القبلة ذاهبة إلى يسارها قيل لها: "ريح الجنوب". وإذا بدت حركة الهواء عن يسار القبلة ذاهبة إلى يمينها قيل لها: "ريح الشمال". ولكل واحدة من هذه الرياح طبع، فتكون منفعتها بحسب طبعها، فالصبا حارّة يابسة، والدبور باردة رطبة، والجنوب حارّة رطبة، والشمال باردة يابسة. واختلاف طباعها كاختلاف طبائع فصول السنة. وذلك أن الله تعالى وضع للزمان أربعة فصول مرجعها إلى تغيير أحوال الهواء، فجعل الربيع الذي هو أول الفصول حارّا رطبًا، ورتب فيه النشء والنمو فتنزل فيه المياه، وتُخرج الأرض زهرتها وتُظهر نباتها، ويأخذ الناس في غرس الأشجار وكثير من الزرع، وتتوالد فيه الحيوانات وتكثر الألبان. فإذا انقضى الربيع تلاه الصيف الذي هو مُشاكلٌ للربيع في إحدى طبيعتيه وهي الحرارة، ومُباينٌ له في الأخرى وهي الرطوبة؛ لأن الهواء في الصيف حارٌّ يابس، فتنضج فيه الثمار وتيبس فيه الحبوب المزروعة في الربيع. فإذا انقضى الصيف تبعه الخريف الذي هو مُشاكلٌ للصيف في إحدى طبيعتيه وهي اليَبَس، ومُباينٌ له في الأخرى وهي الحرارة؛ لأن الهواء في الخريف بارد يابس، فيتناهى فيه صلاح الثمار وتيَبس وتجفُّ فتصير إلى حال الادخار، فتُقطف الثمار وتُحصد الأعناب وتفرغ من جمعها الأشجار. فإذا انقضى الخريف تلاه الشتاء وهو ملائم للخريف في إحدى طبيعتيه وهي البرودة، ومُباينٌ له في الأخرى وهو اليَبَس؛ لأن الهواء في الشتاء بارد رطب، فتكثر الأمطار والثلوج وتَهمد الأرض كالجسد المستريح، فلا تتحرك إلا أن يُعيد الله تبارك وتعالى إليها حرارة الربيع، فإذا اجتمعت مع الرطوبة كان عند ذلك النشء والنمو بإذن الله سبحانه وتعالى. وقد تهب رياح كثيرة سوى ما ذكرناه، إلا أن أصولها أربع؛ فكل ريح تهب بين ريحين فحكمها حكم الريح التي تكون في هبوبها أقرب إلى مكانها وتسمى "النكباء".

قوله تعالى: (**وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ**)، سُمي السحاب سحابًا لانسحابه في الهواء. والسحب: شدة الأكل والشرب. والمُسخَّر: المُذلل، وتسخيره بعثه من مكان إلى آخر. وقيل: تسخيره ثبوته بين السماء والأرض من غير عمد ولا علائق، والأول أظهر. وقد يكون بماء وبعذاب. وفي التنزيل:

﴿ وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ ﴾، وقال: ﴿ حَتَّىٰ إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ ﴾، وهو في التنزيل كثير.

قال كعب الأحبار: ﴿ **السَّحَابِ** ﴾ غربال المطر، لولا السحاب حين ينزل الماء من السماء لأفسد ما يقع عليه من الأرض، رواه عنه ابن عباس. قال: سمعت كعبًا يقول في الأرض: تُنبت العام نباتًا، وتُنبت عامًا قابلاً غيره؟ قال نعم، سمعته يقول: إن البذر ينزل من السماء. قال ابن عباس: وقد سمعت ذلك من كعب.

وبناء على ما سبق:

فإن في الآيات دِلالات تدلُّ على وحدانيته وقدرته، ولذلك ذكرَ هذه الأمور عقيب قوله: **وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ**، ليدلَّ على صدق الخبر عما ذكره قبلها من وحدانيته سبحانه، وذكر رحمته ورأفته بخلقه. وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: **(ويل لمن قرأ هذه الآية فمجَّ بها)**، أي لم يتفكر فيها، ولم يعتبرها.

فإن قيل: فما أنكرت أنها أحدثت أنفسها. قيل له: هذا محال؛ لأنها لو أحدثت أنفسها لم تَخلُ من أن تكون أحدثتها وهي موجودة أو هي معدومة، فإن أحدثتها وهي معدومة كان محالاً، لأن الإحداث لا يتأتى إلا من حيٍّ عالمٍ قادرٍ مريدٍ، وما ليس بموجود لا يصح وصفه بذلك، وإن كانت موجودة فوجودها يُغني عن إحداث أنفسها. وأيضا فلو جاز ما قالوه لجاز أن يُحدث البناء نفسه وكذلك النجارة والنسج، وذلك محال، وما أدى إلى المحال محال.

ومثال ذلك: قال تعالى: **وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ** (المؤمنون: ١٢) يعني آدم عليه السلام، ثم جعلناه أي جعلنا نسله وذريته نطفة في قرار مكين إلى قوله تُبعثون. فالإنسان إذا تفكر بهذا التنبيه بما جعل له من العقل في نفسه رآها مُدبرة وعلى أحوال شتى مُصرَّفة. كان نطفة ثم علقة ثم مضغة ثم لحمًا وعظمًا، فيعلم أنه لم ينقل نفسه من حال النقص إلى حال الكمال؛ لأنه لا يقدر على أن يحدث لنفسه في الحال الأفضل التي هي كمال عقله وبلوغ أشده عضواً من الأعضاء، ولا يمكنه أن يزيد في جوارحه جارحة، فيدلُّه ذلك على أنه في حال نقصه وأوان ضعفه عن فعل ذلك أعجز. وقد يرى نفسه شابًا ثم كهلاً ثم شيخًا وهو لم ينقل نفسه من حال الشباب والقوة إلى حال الشيخوخة والهرم، ولا اختاره لنفسه

ولا في وسعه أن يزايل حال المشيب ويراجع قوة الشباب، فيعلم بذلك أنه ليس هو الذي فعل تلك الأفعال بنفسه، وأن له صانعًا صَنَعه وناقلاً نقله من حال إلى حال، ولولا ذلك لم تتبدل أحواله بلا ناقل ولا مُدبِّر.

ثانيًا: مُدخلات سلاسل القيمة الكونية ومُخرجاتها في تفسير ابن عاشور[1]:

إن في (**خَلْقِ السَّمَاوَاتِ**) في ارتفاعها واتساعها، وإحكامها، وإتقانها، وما جعل الله فيها من الشمس والقمر، والنجوم، وتنظيمها لمصالح العباد.

وفي خلق (**الْأَرْضِ**) مهاداً للخلق، يمكنهم القَرار عليها والانتفاع بما عليها، والاعتبار.

(**و**) في (**اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ**) وهو تعاقبهما على الدوام، إذا ذهب أحدهما، خَلَفه الآخر، وفي اختلافهما في الحرِّ، والبرد، والتوسط، وفي الطول، والقصر، والتوسط، وما ينشأ عن ذلك من الفصول، التي بها انتظام مصالح بني آدم وحيواناتهم، وجميع ما على وجه الأرض، من أشجار ونوابت، كل ذلك بانتظام وتدبير، وتسخير.

(**و**) في (**وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ**) وهي السفن والمراكب ونحوها، مما ألهم الله عباده صَنعتها، وخلق لهم من الآلات الداخلية والخارجية ما أقدرهم عليها. ثم سخَّر لها هذا البحر العظيم والرياح، التي تحملها بما فيها من الرُكّاب والأموال، والبضائع التي هي من منافع الناس، وبما تقوم به مصالحهم وتنتظم معايشهم. فمَن الذي ألهمهم صَنعتها، وأقدرهم عليها، وخلق لهم من الآلات ما به يعملونها؟ أم مَن الذي سخر لها البحر، تجري فيه بإذنه وتسخيره، والرياح؟ أم مَن الذي خلق للمراكب البرية والبحرية، النار والمعادن المُعينَة على حملها، وحمل ما فيها من الأموال؟.

(**وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ**) وهو المطر النازل من السحاب. (**فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا**) فأظهرت من أنواع الأقوات، وأصناف النبات، ما هو من ضرورات الخلائق، التي لا يعيشون بدونها. أليس ذلك دليلاً على قدرة من أنزله، وأخرج به ما أخرج ورحمته، ولطفه بعباده، وقيامه بمصالحهم، وشدة افتقارهم وضرورتهم إليه من كل وجه؟.

[1] تفسير ابن عاشور، بتصرف.

(**وَبَثَّ فِيهَا**) أي: في الأرض (**مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ**) أي: نشر في أقطار الأرض من الدواب المتنوعة، ما هو دليل على قدرته وعظمته، ووحدانيته وسلطانه العظيم، وسخرها للناس، ينتفعون بها بجميع وجوه الانتفاع. فمنها: ما يأكلون من لحمه، ويشربون من دُرِّه، ومنها: ما يركبون، ومنها: ما هو ساعٍ في مصالحهم وحراستهم، ومنها: ما يُعتبر به، ومع أنه بث فيها من كل دابة، فإنه سبحانه هو القائم بأرزاقهم، المتكفل بأقواتهم، فما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها، ويعلم مستقرها ومستودعها.

وفي (**تَصْرِيفِ الرِّيَاحِ**) باردة وحارة، وجنوبا وشمالا، وشرقا ودبورا وبين ذلك، وتارة تثير السحاب، وتارة تؤلف بينه، وتارة تلقحه، وتارة تدره، وتارة تمزقه وتزيل ضرره، وتارة تكون رحمة، وتارة ترسل بالعذاب. فمن الذي صرفها هذا التصريف، وأودع فيها من منافع العباد، ما لا يستغنون عنه؟ وسخرها ليعيش فيها جميع الحيوانات، وتُصلح الأبدان والأشجار، والحبوب والنوابت... وفي تسخير السحاب بين السماء والأرض على خفته ولطافته يحمل الماء الكثير، فيسوقه الله إلى حيث شاء، فيحيي به البلاد والعباد، ويروي التلول والوهاد، وينزله على الخلق وقت حاجتهم إليه، فإذا كان يضرهم كثرته، أمسكه عنهم، فينزله رحمة ولطفًا، ويصرفه عناية وعطفًا.

وبذلك كله، قد أشارت الآية الكريمة رقم ١٦٤ إلى سلاسل كونية للقيمة، شكّلت عناصرها مجموعة نشاطات كل منها بحد ذاته يتألف من نشاطات فرعية وكل منها له جزئيات عديدة، وذلك المجموع هو **نظام القيمة الكوني** الذي تُعبّر عنه المنافع كمخرجات مفيدة للناس، وتضمّنت الآية ذلك بقوله تعالى: (**بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ**)، فخصّ الخالق العزيز كل الناس بالنفع، ليدلّ سبحانه وتعالى على أن كل ما في هذا الكون من موارد مادية سُخِّرت لنفع الإنسان الذي أكرمه الله تعالى، وجعلها تحت سلطته وإدارته. لكن بعض أولئك الناس جحدوا حق الله تعالى فأشركوا غيره معه والسبب أنهم لا يعقلون، فالآيات المذكورة يُميّزها العاقلون فقط، لقوله تعالى في عَقِبها: (**لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ**).

ثالثًا: سلاسل القيمة الجزئية كما يشرحها القرآن الكريم:

أسهبت بعض آيات سورة الحِجر بتفصيل بعض سلاسل القيمة الجزئية التي شكلت سلاسل القيمة الكونية التي ذكرتها الآية ١٦٣ من سورة البقرة، وذلك كالآتي:

- جعل الله في السماء نجومًا تُزيِّن الأرض: **وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ** (١٥).

- مدَّ الأرض لتصبح صالحة للعيش، فثبَّت قشرتها بالجبال، وأنبت فيها من كل شيء بتوازن دون فساد: **وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ** (١٩).
- جعل تلك الموارد المادية أسباب رزق وعيش الناس، الذين هم عاجزون عن تقديم الرزق لله الخالق: **وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ** (٢٠).
- تبقى مستودعات كل شيء عند الله، والصرف منها منوط بآمر الصرف، وهو الله تعالى: **وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ** (٢١).
- تُسخّر الرياح لتلقيح السحاب: **وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ** (٢٢).
- يحمل السحاب الماء، ومنه ينزل لتشربونه أنتم وأرضكم ومواشيكم، ورغم هذه الأهمية الحيوية فليس لديكم القدرة على تخزينه: **فَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ** (٢٢).

أنشطة سلاسل القيمة الكونية ومزاياها التنافسية:

لقد تناول المفسران القرطبي (١٢١٤ م –١٢٧٣ م) وابن عاشور (١٨٧٩ – ١٩٧٣ م)، الأنشطة المتداخلة والمترابطة، التي يتولد عنها عمليات أولية وأخرى داعمة؛ مُخرجاتها منتجات وخدمات تفيد الإنتاج الصناعي والزراعي والتحويلي، بعضها جاهز للاستهلاك النهائي وبعضها وسيط لمراحل إنتاجية لاحقة.

تمثل أجزاء هذه السلاسل بمجموعها نظام القيمة الكونية، وهي تحقق بنفسها ميزة تنافسيّة للأزمنة وللأمكنة، لذلك وجب على الدول والمجتمعات أن تفهم مكوّن نظام القيمة الخاص بها لتستفيد من مزاياها التنافسية وتنتفع بها. فبعض بقاع الأرض حباها الله بالمعادن الدفينة[1]، وبعضها بالمياه، وبعضها بالغابات، وبعضها بالطقس المتنوع، وبعضها بالثلوج، وبعضها بالشمس القوية، وبعضها بالليل الطويل والنهار الطويل، ... وهكذا، لأجل أن تكون الأرض التي مهّدها العليُّ القدير، صالحة لسُكنى البشر وفيها رزقهم الذي يتعيشون به في حياتهم في هذه الدنيا.

[1] تلقب أفغانستان بمملكة الليثيوم التي تقدر بتريليونات الدولارات، وهو المعدن الأكثر طلبًا للصناعة في هذه الأيام.

إذاً: ستُ آيات شكلت فيما بينها، السلاسل الكونية المولِّدة للقيم النافعة لسكان المعمورة، فيها خُلقت نشاطات أوليّة أساسيّة، تتضمن: **إضافة القيم**، وتحتمل **إضافات تالية**، حيث تم خَلق **مزايا تنافسيّة**، وهي:

١. **السماوات والأرض**.

٢. وبدوران السماوات والأرض يكون اختلاف **الليل والنهار**.

٣. **البحار** التي في الأرض التي تتأثر بدوران السماء والأرض، وهي تحمل السفن بما ينفع الناس.

٤. **الماء** الذي أُنزل من السماء الذي أُحييت به الأرض بعد موتها.

٥. بُثَّ في الأرض من **كل دابة** تدبُّ عليها.

٦. جُعلت **الرياح والسحاب** بين السماء والأرض، فالرياح تحُرك السحاب الذي يحمل ماء المطر، الذي جُعل منه كلُّ شيء حيّ.

لذلك يجب على ساكن هذه المعمورة أن يفهم نظامها، فكُل مُكوّن فيها قادر على تعظيم نتائج نظام القيمة، كالآتي:

- الرياح والسحاب هي أنظمة نقل تمثل **لوجستيات** Logistics **(داخليّة وخارجية)**، وتستخدم الأنهار والبحار كمخازن، ولعمليات النقل والشحن، كما يُستخدم الهواء والريح والدواب والطاقة الشمسية والأشعة وغيرها، والأمثلة كثيرة جداً، وما فتئ الإنسان يكتشف المزيد مما فاته جهله، ولم يعلمه بعد.
- **وفرة العمليات** Processes والتي تقوم بمهام تحويل المُدخلات (مواد خام أو عمالة أو طاقة) إلى مُخرجات (سلع وخدمات وسيطة ونهائية)، فالتربة بمجرد سقوط المطر عليها تُنبت زرعًا صالحًا للأكل، وبمجرد دفن أي شيء فيها سرعان ما يتحول لعناصر تذوب في التربة مما يحفظ للأرض بيئة نظيفة، وكذلك الشجر الذي يمتص الكربون ويُطلق الأوكسجين فيعمل كمصافي مُنظفة للبيئة، والأمثلة كثيرة جداً.

- **أنظمة التخزين والمناولة** Warehousing and handling والتي هيأها الله للناس في باطن الأرض وفي السماء وما بين السماء والأرض وفي البحار والأنهار، والأمثلة كثيرة جداً، (وللمزيد يُراجع كتابنا : فقه المخازن وسلاسل التوريد، رابط التحميل) .

وبناء على مدخل المنفعة، حيث تتحقق المنافع وتتوالد بما ينفع الناس كدِلالة، وبناء على هذا الترتيب الهندسي المحكم، يجب أن يَعقل الناس بأن لهذا الكون مُدبراً فلا يجحدوا حق هذا الخالق العظيم، ولا يُشركوا معه غيره، فهذه آيات تخص من يَعقلها، ويُميّزها العاقلون فقط، وبذلك تسقط نظريات الطبيعيين والدهريين والعلمانيين، فلا شيء يكون بلا مُكوّن، ولا تدبير بلا مُدبّر.